

مشاهد الآخرة في القرآن الكريم

د. عوض محمد أحمد كمال*

مقدمة:

تحدث القرآن كثيراً عن حياة أخرى بعد هذه الحياة، سماها تارة (الدار الآخرة)، وأحياناً (اليوم الآخر)، واقتصر أحياناً على لفظ (الآخرة) في مقابلة (الأولي) و (الدنيا) ⁽¹⁾، وحديثه عن هذه الآخرة متنوع، ولكن الحقيقة التي تتكرر دائماً ويقصدها القرآن هي: أن الإنسان في الآخرة مسئول عن أعماله في الحياة الأولى. قال الله سبحانه: ﴿يَبْنُوا لِلْإِنْسَانِ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ⁽³⁾ وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ ⁽³⁾، وكقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَأَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِئَةٍ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ⁽⁴⁾

وبعد ما تقدم أريد توضيح الآتي :

أهمية البحث.

تأتي أهمية هذا البحث في أنه يتحدث عن مشاهد الدار الآخرة، وعلى الأحداث الكونية الهائلة، والتي تكون عبارة عن مقدمات لحياة أبدية خالدة، فأيات القرآن الكريم لم تذكر اليوم الآخر وما يتعلق به عبثاً، وإنما لتأكيد ذلك الموضوع، وحتى لا يفاجأ الإنسان بخراب هذا الكون ودماره ونهاية هذه الدنيا.

* أستاذ مساعد - جامعة أم درمان الإسلامية - كلية أصول الدين - قسم القرآن الكريم.

1 - انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، الطبعة الحلبية، 1939م. (4/499).

2 - سورة القيامة: 13.

3 - سورة النجم: 39 - 41.

4 - سورة الجاثية: 28 - 29.

سبب اختيار الموضوع :

يهدف اختيار هذا البحث إلى تسليط الضوء على مشاهد الدار الآخرة وما يتعلق بها، وذلك حتى يقف القارئ على الآيات الكثيرة، التي صورت تلك المشاهد بصورة واضحة وجلية، وفي ذلك حثٌ على أن يعمل الإنسان الأعمال الصالحة لذلك اليوم الموعود الذي لا شك فيه.

منهج البحث.

المنهج الذي سلكته في هذا البحث هو المنهج الاستقرائي التحليلي، وذلك باستقراء الأدلة القرآنية، وجمع الآيات التي تخص الموضوع، ثم تحليل تلك النصوص وتوضيحها حتى تتجلي تلك المشاهد الأخروية، وذلك ابتداءً من دمار الكون وحتى استقرار الفريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير.

خطة البحث.

قسمت هذا البحث على النحو التالي :

بعد العنوان ذكرت خلاصة البحث، ولكن بطريقة موجزة، ثم بعد ذلك كانت المقدمة التي وضحت فيها بعض النقاط المهمة، ثم كان المبحث الأول، وفيه مطلبان كلاهما يتحدثان عن اضطراب النظام الكوني. ثم المبحث الثاني وهو مرحلة البعث من القبور. وبعده المبحث الثالث وهو مرحلة الخلق الجديد، وفيه مطلبان، والمبحث الرابع مرحلة الحساب والجزاء، ثم المبحث الخامس، وهو يتحدث عن المصير الأبدي لأهل الجنة والنار، وفيه مطلبان أيضاً، وبعد ذلك الخاتمة ثم المصادر والمراجع.

المبحث الأول

مرحلة اضطراب النظام الكوني

يضطرب النظام الكوني، فترتج الأرض رجاً، وتدك دكاً، وتُسف الجبال نسفاً حتى تصير هباء منبثاً وتتفطر السماء وتتشقق وتتناثر الكواكب، وتطمس النجوم ويخسف القمر، وتجمع الشمس والقمر بعد أن بقيا متباعدين في فلكيهما لا يدرك أحدهما الآخر، إلى غير ذلك من المشاهد والإرهاصات التي تشير إلى اختلال النظام الكوني القائم وتبدله، وسواء في ذلك الأرض والسماء⁽⁵⁾.

المطلب الأول: اختلال نظام الأرض.

تتصدع الأرض ويعمها الاضطراب، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۗ لَيْسَ لَهَا لَوْعَةٌ كَذِئْبَةٍ ۚ ۝٢ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۝٦﴾⁽⁶⁾.

هنا نلمح تصويراً لحال الأرض، فيه حركة ملازمة للتشقق والتصدع، ورجة الأرض هنا معناها اضطرابها وحركتها السريعة إثر النفخ في الصور⁽⁷⁾. وقد فسّر ابن عباس الزلزلة بالاضطراب "وتزلزلت الأرض زلزلة واضطربت الأرض اضطراباً فانكسر ما عليها من الشجر والجبال والبنيان"⁽⁸⁾.

⁵ - مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد سزكين (247/2)، مكتبة الخانجي بمصر 1374 هـ/1955 م.

⁶ - سورة الواقعة: 1-6 .

⁷ - جامع البيان عن تأويل القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة، 1373 هـ / 1954 م، (9/142).

⁸ - تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، تأليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، المتوفى سنة 817 هـ، دار الكتب العلمية بيروت، ص 394.

ومن هنا يتضح لنا معني الزلزلة وما يحصل من الاضطراب والحركة السريعة الشديدة المرعبة، كما صورتها الآيات في سورة الزلزلة. قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴿٩﴾ ففي الآيات تصوير حيّ لحال الأرض حين تترج رجاً شديداً، وتزلزل بما فيها من جبال وأناسي، وتلفظ ما في جوفها من الدفائن، وهي ترسم في الذهن زلزلة الأرض، واضطرابها الشامل، كما ترسم لنا ذلك الاضطراب الذي يعتري الإنسان، فيشعر بالأرض تهتز تحته وتضطرب، ويصيب الجبال من الاضطراب ما يصيب الأرض، ويصورها القرآن الكريم وقد سيرت، أو نُسفت أو انهارت من هول يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴿١٠﴾. وهذه الآية من سورة الكهف، تعرض مشهداً يتجلي فيه الهول المادي، في تسيير الجبال الراسية، وبروز الأرض منها عارية، فهي قاع صفصف لا عوج فيها ولا نتوء، ثم يلي ذلك مشهد الحشر الجامع، الذي لا يُخلف وراءه أحداً، ومشهد سير الجبال شُبّه في سورة النبأ بالسراب. قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴿١١﴾. قال الطبري: "ونسفت الجبال فاجتثت من أصولها، فصيرت هباء منبثاً لعين الناظر كالسراب، الذي يظن من يراه عن بعد كأنه ماء، وهو في الحقيقة هباء" (12).

9 - سورة الزلزلة : 1-4.

10 - سورة الكهف : 47.

11 - سورة النبأ : 18-20.

12 - جامع البيان: للطبري، (9/ 231).

والسراب في المعاجم هو ذلك الذي تراه في نصف النهار كأنه ماء (13).

أما نسف الجبال فقد صورته الآية التالية: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي

نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ (14).

ونسف الجبال قلعها واجتثاثها، قال ابن عباس: "يقلعها ربي قلعاً (فيذرها) أى: فيترك الأرض (قاعاً) مستوية، (صفصفاً) ملساء لانبثاق فيها، (لا ترى فيها عوجاً) وادياً ولا شقوقاً، (ولا أمتاً) ولا شيئاً شاخصاً من الأرض" (15). وأضاف الطبري إلى معنى القلع معنى التذرية والتفتت، قال " يذريها ربي تذرية، ويطيرها بقلعها واستئصالها من أصولها، ودك بعضها على بعض، وتسييره إياها هباء منبثاً" (16).

وفي سورة الحاقة مشهد آخر يصور حال الجبال قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْحَةً

وَجِدَّةً ﴿١٣﴾ وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَّةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ

فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ (17).

ففي هذه الآيات الكريمة نجد تصويراً جامعاً لاضطراب الأرض وتفتت الجبال معاً، يتجسد في تعبير الدك بما يحمله من معاني القوة والرعب، فالدك في اللغة يحمل معنى الهدم الذي يصاحبه دق وتفتت (18).

13 - انظر معجم مفردات الفاظ القرآن مادة سرب، للراغب الأصفهاني، دار القدس، ص 175 باب السين.

14 - سورة طه : 105-107.

15 - الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي المالكي، دار الحديث - القاهرة.: (6 / 224)، تحقيق : محمد إبراهيم الحفناوي وآخرين .

16 - جامع البيان للطبري : (9 / 231).

17 - سورة الحاقة : 13-16.

18 - انظر أساس البلاغة للأمام للزمخشري / تحقيق : محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1419 هـ - 1998م، ص 203.

إن انهدام الجبال، وتفتتها بسبب تناثر أجزائها، وتطايرها تبعاً للانكسارات السريعة التي تصيبها، يؤهلها للتناثر والانتفاش، قال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥﴾ (19).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالرَّهْلِ ٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٩ وَلَا يَسْئَلُ حِمِيمٌ حَمِيمًا ١٠﴾ (20). العهن: الصوف (21)، والآيات من سورة القارعة، وقد عرضت مشهداً لما يكون عليه حال الناس والجبال يوم القيامة، فالناس يتطايرون مضطربين في أجواء الفضاء، كما يتطاير الفراش ويحوم في كل مكان، والجبال تتحول إلى ذرات من الهباء وتتناثر، فترى كأنها الصوف المنفوش الخفيف، الذي يطيره ويزوره أقل ریح.

وقال تعالى: ﴿وَدَرَبْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمُ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَحِمِيمًا ١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَّهِيلًا ١٤﴾ (22). انظر إلى هذا التصوير العجيب، والسبك البليغ، والمشهد الرهيب المخيف، الذي ارتجفت له الأرض والجبال. هذا بعض ما يحصل للأرض وما عليها - فماذا عن السماء؟.

19 - سورة القارعة : 1-5.

20 - سورة المعارج 8-10.

21 - مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي بكر الرازي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص307 فصل الضاد.

22 - سورة المزمل : 11-14.

المطلب الثاني: اختلال نظام السماء.

إنّ مشاهد اضطراب النظام الكوني واختلاله يوم القيامة، يملأ نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم، هيبة ورهبة، وأكثر الاضطراب يقع للأرض والجبال والسماء والشمس والقمر والنجوم والبحار، كما في مطلع سور التكوير والإنفطار والإنشقاق، وقد تنوعت هذه المشاهد، فالأرض والجبال في سورة المزمل ترجف، والجبال تصبح كثيباً مهيلاً، والأرض والجبال في سورة الحاقة تُحمل وتُدكّ دكّة واحدة، والجبال في سورة طه تُسَفّ ويصبح مكانها مستويّاً، وفي سورة النمل تسير سير السحاب، وفي سورة النبأ تكون سراياً، وفي سورة القارعة تكون كالعهن المنفوش، ومثل هذا التنوع واردٌ بالنسبة للبحار والنجوم والسماء والشمس والقمر أيضاً.

وقد عرضنا لمشاهد اضطراب الأرض، أما مشاهد انفطار السماء وتناثر الكواكب، فإن مجموع ملامحها الجزئية من تحوّل السماء إلى سائل، ودورانها وتشققها وانفطارها، ثم تناثر نجومها، يكون المشهد العام لما يُصيبها من اضطراب وانهيار.

وعندما تضطرب السماء، وينهار نظامها الكوني، فإنها تتشقق وتتحوّل إلى سائل متلوّث، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۖ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ۗ﴾ (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَلِّ ۗ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۗ (٩) ﴿ (23).

وقد فسّر المهل بتفسيرين كلاهما منقول عن ابن عباس، الأول المهل : دُرديّ الزيت ، وكذلك النحاس المذاب، وهو أيضاً القيح والصديد (24).

23 - سورة المعارج : 6-9.

24 - مختار الصحاح، تأليف محمد بن أبي الرازي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص 466، فصل الميم.

أما أبو عبيدة فقد ذهب إلى أن المهل : كل معدن أذيب، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَعِثُّوا بِعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (25). وهنا عرضت الآيات مشهداً عجيباً للسماء وقد ذابت واسودت، وللجبال وقد صارت هشة خفيفة متطايرة كالصوف المنفوش، وللناس وهم في ذهول واضطراب، وكذلك نجد تصوير القرآن للسماء المنشقة الذائبة السائلة في سورة الرحمن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (26).

وقيل الوردية في الآية : يراد بها الزهرة الحمراء المعروفة، أي كوردة على التشبيه. وقيل الوردية : الفرس الحمراء على التشبيه أيضاً. وقيل : وردة اسم مرة من الورود مثل سجد من السجود، أي أن السماء انشقت وردة أو دفعة أو حركة واحدة. والدّهان دهن الزيت، أي أن السماء تصير مثل الدهن ذوباناً وسيلاناً.

وقيل الدّهان : الجلد الأحمر الخالص. والانشقاق التصدع والانهييار والذوبان. وذكر القرآن مراراً هذه الصورة إبان البعث، وأنها حين تقع ويختل نظام الكون يكون ذلك إيذاناً بالنشور والنشأة الثانية (27). ومن هنا نجد أن قوله

تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ يعطينا الإيحاءات والصورة التي توحيها الآية ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ فقد شبّه سيلان السماء بالدّهان. قال الأزهري معقّباً على تفسير المهل : ومثله قوله فكانت وردة كالدّهان، قال أبو اسحاق كالدّهان : أي تتلون كما تتلون الدّهان المختلفة (28). أما دوران السماء فقد صورته الآيات التالية من سورة الطور، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (١) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ

25 - الكهف : 29.

26 - سورة الرحمن : 37.

27 - سورة الرحمن 93.

28 - لسان العرب، تأليف جمال الدين بن منظور، (كتاب الدال)، دار صادر، بيروت، (37/4)، وانظر : التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي، (14/ 144)، دار السعادة.

﴿ ١١ ﴾ (29)، ومعني: (يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا)، أي تدور دورناً سريعاً. قال الزمخشري: "تمور السماء: تضطرب وتجيء وتذهب، وقيل المور تحرك في تموج"⁽³⁰⁾.
ومن الطبيعي أن دوران السماء وانكفاءها الذي صورته الآيات السابقة لا يترك السماء إلا منهارة الجوانب، متصدعة الأرجاء. وقد صُوِّرَ هذا التصدع بتعبير آخر هو قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ (31).

وقد فسّر الانفطار: بالانشقاق، وهو معنى تؤكد آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (32). والآيات الكريمة تشكل مشهداً رهيباً لتصوير انفطار السماء، وذلك أنها حين تمور وتضطرب تتصدع جوانبها وتنشق. وتنقل لنا الآيات - إضافة إلى هذا - تلك التلقائية التي تظهر في استجابة الكون كله لأمر الله تعالى، وهي التي نجدها في فطر النبات عند أول طلوعه وشقه الأرض، وذلك وفق النظام الذي وصفه الله سبحانه وتعالى، ويؤكد هذا المعنى الأسلوب البياني، الذي سارت عليه الآيات الكريمة، بإسناد الفطر والشق إلى السماء مباشرة، دون إسنادها إلى محدث الفطر والشق وهو الله سبحانه وتعالى، لأجل توجيه الذهن إلى أن الظواهر التي تحدث يوم القيامة مسخرة لهذه الأحداث، مهياة لها، وهي ظاهرة تطرد فيها كل التعابير القرآنية، التي تخص اضطراب السموات والأرض (33).

29 - سورة الطور : 9 - 11.

30 - الكشاف : للإمام الزمخشري، (4/23).

31 - سورة الانفطار : 1-5.

32 - سورة الحاقة : 16.

33 - انظر التفسير البياني للقرآن الكريم - عائشة عبد الرحمن (76/10) - دار المعارف بمصر - الطبعة الثالثة، 1968م. وانظر : تفسير الشيخ محمد سيد طنطاوي، (74/15) وما بعدها، دار السعادة.

فالأرض تزلزل تلقائياً، وتدكّ بانبعاث قاهر، والجبال ترجّ وتنسف، والبحار تُسجر، والنجوم تُطمس وتُبعثر، وكل ذلك في طواعية تلقائية⁽³⁴⁾، وفي كل هذه المشاهد التي مرّ ذكرها تتجسد لنا أهوال القيامة، ومشاهد الاضطراب المفزع.

³⁴ - انظر المرجع نفسه ونفس الصفحة.

المبحث الثاني

مرحلة البعث من القبور

هذه المرحلة مليئة بالمشاهد، وكل منها يوحي بصورة خاصة من صور البعث، حتى إذا اجتمعت هذه الصور المتعددة وتآلفت، شكّلت لنا مشهداً جليلاً لخروج الناس من قبورهم ساعة النفير، وحشرهم إلى ساحة الحساب والقضاء. وهذه الصورة هي: النقر في الناقور، والنفخ في الصور، ودعاء الداعي، ونداء المنادي، والصيحة والزجرة.

والناقور والصّور كلاهما آلة النفير، وقد وردت الآيات حسب ترتيب نزولها بالشكل التالي قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرٌ ﴿١٠﴾﴾⁽³⁵⁾ لأول مرة يُذكر النقر في الناقور، (أى النفخ في الصور)⁽³⁶⁾، حيث يحدث بالنفخ ما يشبه النقر لشدة وقعه في السمع، وقد فسّر معظم المفسرين الناقور: بأنه آلة يُنفخ فيها يوم القيامة إعلاناً بالذهاب إلى فصل القضاء⁽³⁷⁾، ولذلك قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴿٢٠﴾﴾⁽³⁸⁾ وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا نَوِيلَانَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ

35 - سورة المدثر : 8 - 10.

36 - تفسير الخازن (174/7) - الطبعة الثانية، 1375 هـ - 1955م. وانظر : التيسير في علوم التفسير، ص : 363، تأليف عبد العزيز بن أحمد المشهور بالديري، تحقيق : محمد عبد الرحيم، دار الفكر.

37 - انظر تفسير الطبري (151/29). انظر " تفسير الإمام القرطبي (61/60/10).

38 - سورة ق : 19 - 20.

﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (39)، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ ﴾ (40)

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ (41)،

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ (42).

انظر إلى تلك المشاهد العجيبة، التي صورتها لنا تلك الآيات الكريمة، والتي

لا يخفي معناها على العقول والأذهان.

ويبدأ المشهد في الدنيا وينتهي في الآخرة، فالعالم الحاضر والعالم الآخر ليسا منفصلين، والمسافة بينهما ليست بعيدة على أي حال، والصدى الذي يحدثه نفخ الصور يبين الفرع وقد استيقظ الناس من قبورهم، يمضون سراعاً وهم في دهشة يتساءلون: (من بعثنا من مرقدنا)؟ ثم يفركون عيونهم فيتأكدون: (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)، ثم صيحة أخرى (فإذا هم جميع لدينا محضرون)، انتظمت صفوفهم وتهيئوا للعرض، وكل ذلك في مثل لمح البصر أو رجع الصدى إثر دعوة داعي. قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴾ (٦) خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ (43)، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَٰعْوَجَ لَهُ، وَخِشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (44).

39 - سورة يس : 51-52.

40 - سورة غافر : 60.

41 - سورة الكهف : 99.

42 - سورة النبأ : 18.

43 - سورة القمر : 6-8.

44 - سورة طه : 108.

فالداعي في هذه الآيات الكريمة يدعو الناس إلى موقف القيامة فيحشرهم إليه⁽⁴⁵⁾، وهذه الجموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة، كأنهم جراد منتشر (مشهد الجراد المعهود يساعد على تصوّر هذا المنظر الرهيب)، والجموع تُسرّع نحو الداعي، دون أن تعرف لم يدعوهم، فهو يدعوهم (إلى شئ نكر) ويذهبون إلى ذلك (خشعاً أبصارهم)، وهذا يكمل الصورة، ويمنحها السمة الأخيرة، وفي أثناء هذا التجمع والإسراع والخشوع (يقول الكافرون هذا يوم عسر)، فلقد أدركوا حقيقة النفير الذي يدعوهم. أما المنادي فإنه صورة أخرى، وهو الذي يدعو الناس ليوم النداء، وهو يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَقُومَرِإِيَّآ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾⁽⁴⁷⁾. والسياق يصوّر جماعة من المبعوثين يُؤلَّفون الأدبار عند النداء، ويحاولون الفرار ومالهم من الله من عاصم، ومشهدهم وقد ولّوا الأدبار ثم أخذوا بعد الفرار، وثيق الصلة بما صورته آيات أخرى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾⁽⁴⁸⁾. كما تُصوّر الآيات الكريمة حقيقة الموقف حين يهبّ الناس على صوت المنادي، فيهرعون نحوه مُلَبِّين نداءه، مسرعين إلى ساحة الحشر المهولة، ولكنهم في الوقت نفسه يتنادون بينهم،

45 - تفسير الطبري (89/27)، (214/26). (233/9) وما بعدها. وانظر التفسير الوسيط

لمحمد سيد طنطاوي (100/99/14).

46 - سورة ق : 41-44.

47 - سورة غافر : 32-33.

48 - سورة سبأ : 51.

فيتصايحون خوفاً وهلعاً، ويفرّ بعضهم من بعض هارباً على وجهه كما تتدّ الإبل، وذلك بكل ما يحمله هذا المعنى الأخير من إحياءات وثيقة الصلة بالبيئة العربية، وهذه الإحياءات المرعبة المليئة بالحركة السريعة، والتي مرّت بنا في الداعي والنادي، تُشكّل الصورة الثانية من صور النفير العام، الذي يكون قوامه ذلك الصوت المفزع الذي ينادي الناس، ويجمعهم من قبورهم إلى ساحة الحساب⁽⁴⁹⁾.

المبحث الثالث

مرحلة النشأة الأخرى (الخلق الجديد)

يخرج الناس من أجدانهم في كثرة بالغة، إثر سماعهم النفير المفزع يوم القيامة، فيقفون وجهاً لوجه أمام الاضطراب الهائل، الذي يختل معه نظام السموات والأرض، وتتبدل حال الناس. وقد صوّر القرآن مشاهد (النشأة الأخرى) و (الخلق الجديد) بمشاهد رائعة، وسنحاول عرضها فيما يلي وهي : سير الجموع نحو النفير، وبيان أحوال الناس النفسية والجسدية.

المطلب الأول سير الجموع نحو النفير:

أول هذه المشاهد صورة سرعتهم في سيرهم على غير هدى، يهربون من الظلمة ويفرون من الرعب، قال الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولِئْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۗ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ۗ ﴿٥٠﴾ وقال سبحانه : ﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُبَوِّئُنَا قَدَ

49 - التفسير الوسيط - مرجع سابق - (141/14)، والكشاف للزمخشري (223/4).

50 - سورة يس : 48 - 52.

كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾⁽⁵¹⁾، فبعد نفي الصور يخرج الناس من قبورهم يتساءلون عن حقيقة الموقف الذي دُعُوا إليه.

وهكذا صورت الآية حال الكفار، وهم في قمة الحسرة والندامة، ولكن هيهات هيهات، فقد فات الأوان، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلَّتْ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾⁽⁵²⁾.

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون كأنهم ذاهبون إلى نصب يعبدونه، وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا، لقد كانوا يُسرعون إلى الأصنام يعبدونها، فها هم أولاء يسرعون يوم القيامة إسراعهم ذاك، ولكن شتان ما بين هذا وذاك، ثم تتم سماتهم بقوله تعالى: (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة)، فنلمح سيماهم كاملة، وترتسم لنا من قسماتهم صورة واضحة، وهي صورة تتناسق مع صورة الخوض واللعب في الدنيا، فإنهم ليسرعون اليوم، ولكن لا إلى اللهو واللعب، بل إلى الذل والرهق، وإن أساريرهم المرححة الفرحة في الدنيا لتخشع وتذل في الآخرة (ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون) واحدة بواحدة، ويوم بيوم.

ونلمح في الآية معنى آخر إلى جانب سرعتهم في السير، وذلك المعنى هو الضلال المتجلي في طواف المشركين حول النصب، فكأن الناس حين يخرجون من قبورهم يسرعون نحو الداعي، وهم في إسراعهم هذا يكتفهم الضلال والحيرة، كما هو الحال مع المشركين حين يطوفون حول النصب، ولا يستجاب دعاؤهم ولا يجدي طوافهم. أما معنى السرعة فيؤكد وصف الكافرين بأنهم: (كأنهم إلى نصب يوفضون) لأن الإيفاض هو السرعة كما قالوا⁽⁵³⁾، وكلا المعنيين يتعاون على

51 - سورة الأنبياء : 97.

52 - سورة المعارج : 43-44.

53 - تفسير الطبري (88/19). وانظر: حاشية الشيخ الصاوي على الجلايين (4/ 236)، الطبعة الحلبية.

رسم صورة الناس عند إسرعهم نحو الداعي. وفي سير الناس نحو النفير يتفرقون وينتثرون، وقد ملأ الرعب قلوبهم، وقد وصفهم القرآن مرة بالفراش المبتوث، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (٤) (54).

وفي آية أخرى شبه انتشارهم بالجراد، قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ (٦) حُسْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) (55). وهكذا تتداعي الآيات الكريمة لترسم الصورة الواضحة ليوم القيامة، وأن الكون كله يلفه الفزع والرعب، ثم تأتي صورة تفرق الناس، وانتشارهم كالفراش والجراد، لتكتمل صورة الاضطراب الشامل.

المطلب الثاني أحوال الناس النفسية والجسدية:

رأينا في بداية المرحلة الثالثة كيف خرج الناس من قبورهم، ففزعت نفوس الكافرين منهم، ولنا أن نلاحظ الآن من صفاتهم: يأسهم الشديد من الرحمة والعفو، وتوقعهم العذاب، أما المؤمنون فتتناسب صورهم بهدوء رائع، غير مباين بالفزع الذي يشمل الكون كله، قال الله تعالى مبيناً حيرة الناس ويأسهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَدَرِينٌ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٦) فإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠)﴾ (56).

الآيات تعرض مشهداً لهول يوم القيامة، تشترك فيه الظواهر الكونية والنفس الإنسانية، فالإنسان حين يشهد الظواهر المرعبة التي تسود الكون، يرى الفزع محيطاً به، وتشخص عيناه، ويزوغ بصره، وتأخذه الحيرة فلا يطرف، وهو معني

54 - سورة القارعة : 4.

55 - سورة القمر : 6-8.

56 - سورة القيامة : 1-10.

أكدته قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (57)، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (97). (58). هؤلاء الأشقياء يملأ قلوبهم الفزع، والشعور بأن مصيبة عظيمة تحل بهم، ولكنهم يجهلونها، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِاسِرَةٍ ﴿٢٤﴾ نَتُنَّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ (59).

هؤلاء المجرمون ييأسون من الرحمة، ومن العفو، ويوقنون بداهية عظيمة مؤلمة تحل بهم، فتتركهم أدلاء ضعفاء لا معين لهم، وهذه الداهية تقصم ظهورهم، وتكسر فقارهم، وتحطم جبروتهم، إنها صورة رهيبة لذل الناس يوم تقوم الساعة. وهكذا كشفت لنا المشاهد السابقة عن صور عديدة للحالات النفسية، التي يكون عليها الناس يوم القيامة (60).

أما صفاتهم الجسدية فمنها بياض وجوه المؤمنين، وسواد وجوه المجرمين، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلِيَّا غَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾ (61).

57 - سورة إبراهيم : 42.

58 - سورة الأنبياء : 97.

59 - سورة القيامة : 20 - 25.

60 - انظر الكشاف للإمام الزمخشري - (295/4)، والتفسير الوسيط - محمد سيد طنطاوي -

(51/15).

61 - سورة عبس : 33 - 42.

المبحث الرابع

مرحلة الحساب والجزاء.

يقف الناس في موقفٍ عظيمٍ يوم القيامة، ولا تمايز بين الناس، فجميعهم سواسية في ساحة القضاء الإلهي.

يقف الإنسان وحده أمام الهول، مجرداً من صحائف أعماله التي تشهد عليه، فتقرر مصيره، ولا وسيلة للهرب من العقاب كتلك التي اعتادها الناس في الحياة الدنيا، فإنه العدل المطلق، الذي تقف البشرية أمامه، فيطمئن المؤمن لنهايته السعيدة، لأن أعماله تشهد له، ويوقن المجرم بضالة نفسه، وبالعقاب الذي ينتظره جزاء أعماله في الدنيا.

ويستطيع الإنسان أن يتخيل هذه الصورة المثالية للقضاء العادل، وأى شعور رهيب يجتاح المنكرين لحقائق هذا الدين، وذلك حين يسمعون أن المرء يأتي ربه فرداً، ويقف في ساحة قضائه وحيداً ضعيفاً متهاكاً، ويلتفت فيجد الوسائل التي كان يتوصل بها إلى النجاة في الحياة الدنيا قد تقطعت، وقد يئس من أحد يشفع له، أو يعينه على التخلص من العقاب، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (62).

وفي سورة غافر يصف الله سبحانه وتعالى هول الموقف يوم القيامة، والذي تبلغ فيه القلوب الحناجر، فلا يستطيعون الكلام، لأنهم أيقنوا من الحساب الدقيق، الذي لا يترك ذنباً كبيراً أو صغيراً إلا أحضره، ويزيد بأسهم وخوفهم أن ليس لهم شفيع تُقبل شفاعته، لأنهم ظالمون مجرمون، قال تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (١٨) يَعْلَمُ خَائِبَةً الْأَعْيُنِ

وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴿٦٣﴾.

ذلك حال الناس جميعاً، فما بال " المجرم "؟ إن الهول ليأخذ بحسّه، وإن الرعب ليذعر نفسه، وأنه ليبود (لو يفتدي من عذاب يومئذ) بأعز الناس إليه، ممن كان يفديهم ويناضل عنهم، ويضحّي بنفسه من أجلهم، قال تعالى :

﴿يُضْرَوْنَهُمْ يَوْمَ الْمَجْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيَّبُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَىٰ ﴿١٥﴾﴾ ﴿٦٤﴾.

بل إن حاجته إلى الإفتداء ورغبته في الخلاص، لتجعله مخلوقاً مجرداً من الإنسانية، لايهمه شيء إلا نفسه، وأنه ليتمني لو يفتدي بالناس جميعاً. وهكذا يقف الناس في يوم الحساب أمام قضاء عادل، تنفصم فيه عرى القرابة والصدقة، وسائر روابط الإنسانية، فيقف الغني والفقير، وذو الجاه والصلعوك، أمام قانون واحد حازم، تمهيداً لوزن أعمالهم بالقسطاس المستقيم العادل، الذي لا تشويه شائبة من شوائب الظلم في الحياة الدنيا، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا آدْرَبْتَ مَاهِيَةً ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾﴾ ﴿٦٥﴾.

وتماشياً مع طريقة التجسيم القرآني فقد صورت الآيات أعمال الإنسان، وأنها لها أجسام توزن، وذلك على مشهد من الناس وهم كالفراش المبيوث. وهنا جاء الأخذ بالتعبير المجازي للميزان، الدال على العدل في قدر الأعمال، وقد وصف القرآن المشاهد الأخروية ومصائر الناجين والخاسرين بأوصاف الحياة الدنيا، مما يوحي أن ذلك من قبيل التمثيل والتقريب، وهذه إحدى طرائق إعجازه.

63 - سورة غافر : 18 - 20.

64 - سورة غافر : 18 - 20.

65 - سورة القارعة : 6-11.

المبحث الخامس

مرحلة المصير الأبدي (عذاب النار ونعيم الجنة)

بعد أن يحاسب الناس حساباً عادلاً، ويقضى بينهم، ينقسمون إلى فريقين: فريق المجرمين حيث الشقاء في النار، وفريق المؤمنين حيث النعيم في الجنة.

قال تعالى في وصف النار ووصف الجنة: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْثِيَّةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أِنِيَّةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبٌ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (66).

وعلى ضوء ذلك قسمت هذا المبحث إلى مطلبين.

المطلب الأول الشقاء الدائم في النار:

تحدث القرآن كثيراً عن النار وما فيها من شقاء دائم، ينتظر من كفر بالله واستكبر، واتبع الشيطان فكان من الخاسرين. وقد ورد ذكر النار في أكثر من عشرين ومائة آية في القرآن الكريم (67) على أنها دار العذاب التي يحل بها المجرمون يوم القيامة، ويعذبون بلهيبها ولظاها المحرق. وقد سميت بعدة أسماء، تجتمع كلها لترسم صورة العذاب الرهيبة، فقد أُطلق عليها أسماء جهنم والجحيم والحريق واللظى والسعير وسقر والهاوية، وكلها مذكورة في القرآن الكريم.

وهي نيرانٌ ملتهبة توقد من الناس والطغاة والحجارة. وقد صور القرآن الكريم شدة لهيب هذه النيران ولظاها تصويراً رهيباً، فهو تارة لهيب خالص لا يشوبه

66 - سورة العنثية : 1 - 16.

67 - المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث - القاهرة، حرف النون، ص 603.

الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ (70).

والورد في الآية الكريمة : بمعنى العطاش (71). ومن المشهود أن معني الورد في اللغة هو إتيان الماء على خلاف الصَّدْر، وإنما أطلق تعبير الورد في الآية الكريمة على العطاش، لأن من يرد الماء لا يرده إلا لعطش كما يقول الزمخشري، (72)، إلا أن المجرمين لا يرتوون بورودهم جهنم، بل تبدأ مرحلة أخرى للعذاب، والعقاب، فمع شدة لهيبها المحرق يعاقب المجرمون بلون آخر من صنوف العذاب، وهو حرمانهم من الماء، وقد صور هذا الحرمان المحاورة التي جرت بين أهل الجنة وأهل النار، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (73).

هذه صورة رهيبة لاستجداء أصحاب النار وقد حرموا الماء، فهم ينادون بصوت ملؤه الرجاء والدلة، فيأتيهم الجواب بالمعذرة والتذكير: (إن الله حرهما على الكافرين)، إذن فلا رحمة لأهل النار، ولا يفيض أهل الجنة عليهم شيئاً من الماء أو مما رزقهم الله، حتى إذا بلغ الظم بأهل النار مداه، وتقطعت أعاؤهم لهفاً على الشراب، سقوا ما أعد لهم من الشراب الحار، الذي صور القرآن بعدة صور مفزعة، فهو تارة الحميم، وأخرى الغساق، ومرة المهل، ومرة الصديد.

70 سورة مريم: 85 - 87

71 - تفسير الطبري (16/129، 130)، وتفسير ابن كثير (3/137).

72 - الكشاف (2/542).

73 - سورة الأعراف: 50 - 51

والحميم شراب مؤذ يلجأ إليه المجرمون بعد أن يحرق الزقوم الذي يأكلونه بطونهم، فيشربون من الحميم، فلا يرتون بل يزداد أذاهم وعطشهم، فهم يشبهون الإبل الهيم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْتَا الضَّالِّينَ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٥١﴾ لَا كُفُونَ مِنْ سَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ﴿٥٢﴾ فَأَثَرُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُوا شُرْبَ الْهَيْمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نَزُّهُمُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ (74)، وعذاب العطش والحرمان من الماء جعل صورة العطش لوحة دائمة التجديد، ففي الآيات الكريمة من سورة الواقعة السابقة، ترسم لنا صورة العطش الدائم، والحرمان الأبدي، ويزيد الصورة وضوحاً تمثيلاً شربهم المتواصل -الذي لا يجديهم- بشرب الإبل الهيم.

ومن شراب أهل النار: الغساق قال تعالى: ﴿ هَذَا وَابْتِ لِّلطَّغِينِ لَشَّرِ مَتَابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَنْسِفُونَ فِيهَا جَهَنَّمَ ﴿٥٦﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِمْ أَزْوَاجٌ ﴿٥٨﴾ (75). وقال تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾ لِلطَّغِينِ مَتَابًا ﴿١٢﴾ لِيُثَبِّتَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿١٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿١٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا ﴿١٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿١٦﴾ (76). وقد اختلف في معنى الغساق، فقيل: هو ماء مظلم منتن، وقيل: ماء يسيل من صديدهم (77). وقيل: الغساق هو الزمهرير أو البرد الذي لا يطاق، فالحميم يحرق بحرّه، والغساق يحرق ببرده (78)، فهو ضد الحميم، وهو لشدة برده المؤلم لا يُستطاع (79) ولا يُواجه من نتته (80).

- 74 - سورة الواقعة: 51 - 56
 75 - سورة ص: 55 - 58
 76 - سورة النبأ: 21 - 26
 77 - انظر تفسير الطبري (178/23).
 78 - تفسير الزمخشري (379/3).
 79 - انظر تفسير ابن كثير (41/4).
 80 - المصدر نفسه: (464/4).

والصديد وصف آخر للماء الذي يُغاث به المجرمون في النار، وذلك حين يشتد عطشهم، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ. وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ (81).

وقد فسّر الصديد: بأنه ما يخرج من جلود المعذبين في النار من قيح ودم (82)، ومثله المهل، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ (83).

قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ مثل دَرْدِيّ الزَّيْتِ، وقال مجاهد: هو كالدّم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيء الذي انتهى حرّه، وقال آخرون: هو كلّ شيء أذيب.

هذه المشاهد كلّها تجتمع لتصور شراب أهل النار على أنه وسيلة من وسائل العذاب، إضافة إلى معاناة لهب النار ولظاها المحرق، ومن الواضح أن إطلاق الشراب على هذا الضرب من العذاب إنما صدر عن سخرية لاذعة بالمجرمين، وذلك حين تُقَطع أمعاؤهم عطشاً، فيُغاثون بماء كالمهل لا يروي غلتهم، ولا يفيدهم أيّ فائدة، ولكنهم يشربون منه، لأنهم لا يجدون شراباً غيره، لأن الطعام الذي يزدرونه يزيد عطشهم، ويحرق بطونهم، فيشربون من هذا الشراب دون أن يجدوا فيه لذة الشراب ونعيم الماء.

81 - سورة إبراهيم: 15 - 17

82 - تفسير الطبري (13/195). انظر: الكشاف (2/371).

83 - سورة الكهف: 29.

طعام أهل النار:

صَوَّرَ الْقُرْآنُ طَعَامَ أَهْلِ النَّارِ بِصُورٍ عِدَّةٍ: هِيَ الضَّرِيعُ، وَالزَّقُومُ، وَغَيْرُهَا، وَكُلُّهَا تَجْتَمِعُ مَلَاحِجَهَا لِتَثِيرَ جَوْاً رَهِيْباً لِمَشْهَدِ آخِرِ مَنْ عَذَابَ الْمَجْرِمِينَ فِي النَّارِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۚ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٢﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشْفَى مِنْ عَيْنٍ عَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ (84).

وإنما سمي هذا طعاماً، من حيث إنه يُسْتَطْعَمُ أو أريد أنه لا طعام لهم أصلاً، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنسان، لأن الطعام ما أشبع أو أسمن، وهو منهما بمعزل (85).

وفي آيات أخر جعل الله طعام أهل النار من شجرة الزقوم، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَذَلِكْ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿١٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿١٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿١٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنٌ مِنْهَا أَلْبُظُونَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿١٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ (86).

وطعام المجرمين في هذه الآيات الكريمة هو ما عبّر عنه بشجرة الزقوم، إلا أنّ المفسرين لم يفسروا لنا هذه الشجرة، لأنهم لم يعرفوا شجرة بعينها في بيئتهم تُسَمَّى الزَّقُومُ، لكن في أذهانهم صوراً لها، ذلك لأنهم اعتادوا أن يسموا كل طعام ثقيل باسم قبيح، ومع ما تقدم فهناك صنوف أخرى من العذاب تنتظرهم، تجد صورها في القرآن الكريم، وهي غير تلك التي مرت بنا من وسائل العذاب، كما أنها تُلقَى ظلالاً جديدة من الرهبة والخوف والهلع، منها تلك السلاسل والأغلال التي يُفَيِّدُ بها المجرمون، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ

84 - سورة الغاشية: 2 - 7.

85 - التفسير الوسيط لفضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوي (375/374/15) دار السعادة.

86 - سورة الصافات: 62 - 68.

رُسِلْنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ
فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا
عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴿٨٧﴾.

هكذا يُسحب المجرمون إلى النار والأغلال في أعناقهم، والسلاسل في
أقدامهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ ﴿٤﴾ ﴿٨٨﴾.
وإذا تركنا هذا - وذهبنا إلى فريق آخر، وهم فريق المؤمنين السعداء، فإننا نجد
الصورة تختلف تماماً عما تقدم، وهذا ما نجده في المطلب الثاني.

المطلب الثاني النعيم المقيم في الجنة:

وصف طبيعة الجنة واعتدال جوها:

تكرر ذكر الجنة في القرآن الكريم على أنها المثوى الأخير للمؤمنين، وذلك
في أكثر من عشرين ومائة آية (89)، تقابلها النار التي هي قرار المجرمين.
وكثيراً ما حرص القرآن الكريم على رسم صور متقابلة لمشهدي النار والجنة،
فالنار بهومها وغمومها، وتقابلها الجنة بنعيمها وسرورها، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ
يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُشَقَّى مِنْ عَيْنٍ أَنِيبَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا
مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسُونَ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾
وَمَنَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبُ مَبْنُوتَةٌ ﴿٩٠﴾.

87 - سورة غافر: 70 - 74.

88 - سورة الإنسان: 4.

89 - انظر المعجم المفهرس، مرجع سابق، ص 180-181.

90 - سورة الغاشية: 2 - 16.

والقرآن يُصَوَّرُ لأذهاننا سعة هذه الجنة وضخامتها، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (91).

فإذا كان العرض أضيق من الطول عادة، فليتأمل الخيال أمرَ تصوُّرِ طولِ يكون عرضه السموات والأرض، وقد أعدت في هذه الجنة مساكن وصفها القرآن بأنها طيبة، تطيب فيها الحياة ويسعد فيها المقيم.

ووصفت الجنة بأنها البستان المحفوف بالشجر، المتكاثف بالنخيل (92)، وكذلك الفردوس (93)، حيث الجمال الرائع، والأشجار المتدانية، والقطوف السهلة، والأثمار الوفيرة، والأعشاب الكثيرة، ولطالما تاقنت النفوس إليها.

ويعدد القرآن في آيات أخر من سورة الواقعة نعم الجنة الكثيرة، وفواكهها

المتنوعة، وطعامها اللذيذ، وظلها الوارف الجميل، وماؤها الوفير، وأشجارها

العجيبة، قال تعالى: ﴿وَالسَّيِّدُونَ السَّيِّدُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾

ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مَتَقَلِّبِينَ ﴿١٦﴾

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُزْفُونَ ﴿١٩﴾

وَفَكَهَأَ مِمَّا يَخْتَارُونَ ﴿٢٠﴾ وَلِحَرِطِيفٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ الذُّلُولِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾

جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا قِيَلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٥﴾ وَأَصْحَابُ

91 - سورة آل عمران: 133.

92 - تفسير الزمخشري (1/256).

93 - تفسير الطبري (16/36).

أَلْيَمِينَ مَا أَصْحَبُ أَلْيَمِينَ ﴿٣٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٣٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٣٩﴾ وَظَلِّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكَهْمَهُ كَثِيرَةً ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ ﴿٣٣﴾ وَفُرْشٍ مَّرْفُوعَةَ ﴿٣٤﴾ ﴿٩٤﴾.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ فُطُوفُهَا نَدِيلًا ﴿١٤﴾﴾ (٩٥). فالمؤمنون في مقامهم الهادئ المريح، ينعمون في جو معتدل، لا يعانون فيه الحر الشديد، ولا البرد القارس المؤذي، كما أنهم في ظلال مستطابة يستريحون فيها، ويهب عليهم نسيمها البارد العليل. وقد أكثر القرآن من الحديث عن ظل الجنة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ (٩٦).

٩٤ - سورة الواقعة: 10 - 34.

سرر موضونة : منسوجة بالذهب بإحكام.

من معين : خمر جارية من العيون.

لايصدعون عنها : لا يصيبهم صداد بشرتها.

ولا ينزفون : لا تذهب عقولهم بسببها.

في سدر مخضود، وطلح منضود : قال المفسرون : إن السدر هو شجر النبق المنزوع الشوك، والطلح المنضود: هو المنضد. وقيل الطلح ثمر الموز حيث تكون أصابعه منضدة في العنقود - انظر: (تفسير الزمخشري (54/4)، وتفسير ابن كثير (288/4).

٩٥ - سورة الإنسان: 13 - 14.

٩٦ - سورة النساء: 57.

والظلّ بمعني النعيم، يقال: أظلني فلان أي: حرسني وجعلني في ظله، أي: في عزّه ومنعته، وظل الجنة لا يصيب صاحبه حرّ ولا سموم، ودائم لا تتسخه الشمس⁽⁹⁷⁾، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَه مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٩٨﴾.

وقال أيضاً: ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ ﴿٥٦﴾﴾⁽⁹⁹⁾.

فالظلّ تجد النفس عنده الطمأنينة، وتشعر لديه بالهدوء والغبطة، وإليه يلجأ السائر في حرّ الظهرية، فيجد راحة نفسية وهدوء قلبياً، وكأن القرآن بهذا الوصف يعقد مباينة تامة بين النار الملتهبة، حيث لا يجد فيها الإنسان مأوى من لظاها وظلها، وبين الجنة ذات الظل الوارف الممدود.

شراب أهل الجنة وأنهاها:

بينما يُعاني أهل النار العطش والحرمان، يُحشر الذين آمنوا أعزاء كرماء، في جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار، أنهار الماء الصافي، واللبن الذي لا مثيل له والعسل لا تشويه الفضلات، والخمرة التي هي لذة للشاربين، قال تعالى: ﴿أَفَن كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَأَتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴿١٥﴾ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾⁽¹⁰⁰⁾، وتتكرر صورة الأنهار الجارية في فراديس الجنان، كقوله تعالى:

97 - انظر تفسير الزمخشري (535/1)، وتفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا: (168/5)، الطبعة الثانية.

98 - سورة المرسلات: 41 - 42

99 - سورة يس: 56

100 - سورة محمد: 14 - 15.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَبَّاتٌ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥) (101).

وصورة الأنهار الجارية هي التي تُكَمِّلُ صورة الطبيعة الرائعة في القرآن الكريم، وقد ذكر الزمخشري هذا بقوله : ولولا أنّ الماء الجاري من النعمة واللذة الكبرى، وأن الجنان والرياض وإن كانت أنضر شيء وأحسنه، لا تروق النواظر، ولا تبهج الأنفس، ولا تجلب الأريحية والنشاط، حتى يجري فيها الماء، وإلا كان الأُنس الأعظم فائتاً، والسرور الأوفر مفقوداً، وكانت كتماثيل لا روح فيها، وصور لا حياة لها - لما جاء الله بذكر الجنان مشفوعاً بذكر الأنهار الجارية من تحتها، مسوقين على قرآن واحد، كالشيئين لا بد لأحدهما من صاحبه (102).

ونجد من بين ذلك أنهاراً من الخمر، تُقدِّم في كأس جميلة، ووصفت بأنها ليست كخمر الدنيا، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤١) ﴿فَوَكَهَهُمْ مَكْرُمُونَ﴾ (٤٢) فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَى سُرُرٍ مُنْقَلَبِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوُونَ ﴿٤٧﴾ (103)، فالمؤمنون في أعلى مراتب التكريم، فهم مخدمون، لا يتكفون شيئاً من الجهد في دار الراحة والرضوان والنعيم، وزيادة في المتاع، فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه، لا يؤثر فعل الزمن فيهم، ولا تدركهم السن، فهم مخلدون في سن الصبابة والصبأ والوضاءة، وهم كاللؤلؤ المنثور، يطوفون عليهم بأكواب وأباريق وكأس من معين، كأس من خمر صافية سائغة، فلا يُصدِّعون عنها، ولا هي تنفد من بين أيديهم، فكل شيء هنا للدوام.

101 - سورة الرعد: 35.

102 - تفسير الكشاف : (258/1).

103 - سورة الصافات: 41 - 47.

قال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ (104). فحمر الجنة صافية مخلوطة بالمسك الطيب الرائحة.
طعام أهل الجنة:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعِيُونَ ﴿٤١﴾ وَفَوَكَهَهُمَا بِلِسَانٍ فَسَاهُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كَسَبَتْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (105).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُمٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (106)
طعام أهل الجنة المذكور في القرآن من الفواكه والطيور السمان، والمن والسلوى واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى. كله معد للمتقين والأبرار.

وقد خص القرآن الفواكه والثمار من بين أنواع طعام أهل الجنة، فهو يجمعها معدداً أنواعها حيناً، ويتحدث عن قرب مجنتها ودنو قاطفها حيناً آخر، قال تعالى: ﴿ يَعْبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا شَتَّهِمِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كَسَبْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (107).
تؤكد هذه الآيات قمة النعيم والترف والسرور الذي يعيش فيه أهل الجنة، وتبدأ الآيات السابقة بنداء أهل الجنة، وبإضافتهم إلى الله تعالى، وبعد ذلك يأتي النداء الذي يحمل بشارة كريمة بعدم الخوف والحزن، ويزداد ذلك بأمرهم بدخول الجنة هم

104 - سورة الإنسان: 19.

105 - سورة المرسلات: 41 - 43.

106 - سورة المطففين: 22 - 26.

107 - سورة الزخرف: 68 - 73.

وأزواجهم، وهم في نعيم دائم لا انقطاع له، وأن الملائكة يطوفون عليهم بأواني الذهب والفضة للطعام والشراب، وهم في أتم وأكمل الفرح والترح، وتختتم الآيات بالكلام عن ثمار الجنة الكثيرة، وأنوعها المختلفة وأصنافها العجيبة، ولا نعيم وراء ذلك النعيم (108).

108 - انظر: تفسير ابي السعود، (6/ 46 - 47)، تحقيق: محمد بن علي الجيلاني، المكتبة التوفيقية. وانظر: صفوة التفاسير للشيخ محمد علي الصابوني، (3/ 165-166)، دار الصابوني.

الخاتمة:

في خاتمة خالص الباحث إلى النتائج والتوصيات الآتية:

نتائج البحث:

أولاً: استندت من هذا البحث أن القرآن الكريم قد أكثر من ذكر اليوم الآخر، والدار الآخرة، ويوم القيامة ونحو ذلك، وبأساليب مختلفة ومتنوعة، وكثيراً ما يصاحب ذلك التوكيد؛ حتى يتضح أن ذلك الأمر جدّ وأنه واقع لا محالة، حتى لا يبقى في النفس البشرية إلا الإقرار التام والإذعان بذلك اليوم.

ثانياً: إن المسألة التي تناولتها في هذا الموضوع أخذت مساحة كبيرة من كتاب الله تعالى، وكذلك من السنة النبوية، وكل ما يقرأ الإنسان القرآن يلاحظ أنه أمام كم هائل من الأدلة القرآنية التي تحدثت على اليوم الآخر وأهواله وأحداثه المفزعة.

ثالثاً: إن إكثار القرآن الكريم للأدلة في مسألة من المسائل قد يدل دلالة واضحة على أهميتها، ولولا ذلك لما أكثر من إيراد تلك الأدلة الكثيرة.

رابعاً: إن الآيات القرآنية المذكورة في هذه الموضوع لم تكن على نسق واحد، وإنما تنوعت تلك الآيات حتى كأنها لم تترك صورة من الصورة البلاغية إلا وعبرت بها عن ذلك المشهد المخيف.

التوصيات:

من خلال ما كتبتة عن هذا البحث، وذلك من بحث ومذاكرة وتفتيش لمادة

هذا البحث أريد التوصية بالآتي:

1- الإكثار من قراءة كتاب الله تعالى ولكن بتدبر وتمعن، وذلك حتى يقف الإنسان على اسرار هذا الكتاب العظيم، ويدرك ما تحمله آياته من القضايا والمسائل المهمة.

2- ولا يفوتني أن أوصي بالإكثار من قراءة كتب التفسير، والاطلاع عليها لتعين على فهم الآيات القرآنية فهماً صحيحاً.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي، الطبعة الحلبية، 1939م.
3. أساس البلاغة، للإمام الزمخشري، المتوفي سنة: 538هـ، تحقيق: محمد باسل، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى لسنة 1419هـ - 1998م.
4. تفسير أبي السعود، تأليف: القاضي أبي السعود محمد بن محمود العمادي الحنفي، المتوفي سنة 982هـ، تحقيق: محمد بن عليّ جيلاني، المكتبة التوفيقية.
5. التفسير البياني للقرآن الكريم، للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطيء، دائرة المعارف - بمصر، الطبعة الثالثة، لسنة 1968م.
6. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء الحافظ ابن كثير، دار التراث.
7. تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، لسنة 1366-1947م.
8. التفسير الوسيط، لفضيلة الدكتور: محمد سيد طنطاوي (شيخ الأزهر)، مطبعة دار السعادة.
9. التيسير في علوم التفسير، تأليف عبد العزيز بن أحمد المشهور بالديري، تحقيق: محمد عبد الرحيم، دار الفكر - بيروت.
10. الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي المالكي، دار الحديث - القاهرة.
11. جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفي سنة 310هـ، تحقيق: هاني الحاج وآخرون، المكتبة التوفيقية.
12. حاشية العلامة الشيخ أحمد الصاوي المالكي، على تفسير الجلالين، الطبعة الحلبية. ح.
13. حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام أبي القاسم الزمخشري المتوفي سنة 538هـ، تحقيق: يوسف الحمادي، مكتبة مصر.
14. صفة التفسير، للشيخ محمد علي الصابوني، دار الصابوني.
15. لباب التأويل في معاني التنزيل، لعليّ بن محمد المشهور بالخازن، المولود سنة 678هـ، والمتوفي سنة 741هـ، دار الكتب العلمية.
16. لسان العرب، تأليف جمال الدين بن منظور الأفرقي، المتوفي سنة 711هـ، الناشر: دار صادر.
17. مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، تحقيق: محمد فؤاد، مكتبة الخانجي.
18. مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر الرازي، دار ومكتبة الهلال.
19. معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، تحقيق: نصر الدين تونسي، شركة القدس.
20. المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث - القاهرة.
21. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للإمام أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ط3، دار المعرفة 1430هـ - 2009م.